التواصل البيداغوجي
ونجاح اكتساب التعلمات

في أعمال أحمد لعمش

الدكتور محمد سعيد صمدي
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين/ طنجة

أصبح الدرس التربوي بمختلف تجلياته النظرية والتطبيقية محلَّ اهتمام متزايد في النقاش العمومي وأدبيات البحث التربوي العلمي والتدخلي، نظرا لمخرجات منظومة التربية والتكوين التي أصبح أرقُها وانتكاس نتائجها يزيد الخرق على الرقع، ويُتيح فرصَ بروز دعوات ناتئة توسع دائرة التشظي والتصدع المجتمعي...

وأصبح الحديث عن المدرسة في قلب المشهد الحواري والثقافي، والنقاشُ يدور حول مدرستين: المدرسة التي يعايشها الطفل اليوم ومدرسة الغد، أي المدرسة التي تستجيب لحاجات بناء مجتمع المعرفة وتكنولوجيا المعلوميات، وهي المدرسة التي يجب أن يبدأ التفكير بجد في تنزيل أسسها لأبناء مغرب الغد...

في سياق البحث التربوي العلمي المهتم بقضايا التربية وتفاصيل العملية التعليمية التعلمية والممارسة الصفية الفعالة، أثث المكتبةَ التربوية الزميلُ الأستاذ الباحث

أصبح الدرس التربوي بمختلف تجلياته النظرية والتطبيقية محلَّ اهتمام متزايد في النقاش العمومي وأدبيات البحث التربوي العلمي والتدخلي، نظرا لمخرجات منظومة التربية والتكوين التي أصبح أرقُها وانتكاس نتائجها يزيد الخرق على الرقع، ويُتيح فرصَ بروز دعوات ناتئة توسع دائرة التشظي والتصدع المجتمعي...

أحمد لعمش أستاذ علوم التربية بالمركز الجهوي بالقنيطرة، بإصدارين مترابطين متكاملين يمثلان - في آن - باكورة أعماله، ترصدان أثر العلاقة التواصلية البيداغوجية على اكتساب التعلمات وتمثل القيم والمعايير وتجاوز التسرب والهدر المدرسي، إن على مستوى الطفولة المبكرة أو الابتدائية أو المرحلة الإعدادية.

1 - **الكتاب الأول:** التوافق الاجتماعي لتلاميذ التعليم الابتدائي :

قسم الأستاذ أحمد لعمش مشروع أطروحته إلى قسمين قسم يرصد المرحلة الابتدائية، وقسم خاص بمرحلة المراهقة/ مرحلة الإعدادي. الكتاب الأول وسمه بعنوان» التوافق الاجتماعي لتلاميذ التعليم الابتدائي» صدر عن منشورات مجلة علوم التربية العدد 33، استوفى 242 صفحة من الحجم الكبير.

تعد مرحلة التعليم الأولي والابتدائي مرحلةً جد حساسة في بناء شخصية الطفل، وتنمية قدراته ومهاراته واستعداداته الفطرية، وتشكل محطة رياض الأطفال أولَ قفزة نوعية ينتقل منها الصغير من عالمه الصغير/الأسرة، إلى محيط آخر تلعب فيه المربيات دور الأم، والأقرانُ الصغارُ دورَ الإخوة، وهكذا تبدأ عنده عمليات الاندماج والتفاعل مع الغير في علاقات تواصلية غير تلك التي يعيشها وسط أسرته ومحيطه الضيق. ويزداد احتكاكا بالغير عندما يلتحق بصفوف المدرسة الابتدائية وما يليها، حيث تنتظم المواد الدراسية بشكل منهجي أكثر صرامة منه في التعليم الأولي، وهنا يبرز إشكالُ العلاقة السائدة بين المدرس والمتعلم أو لنقل بين المتعلم وباقي الفاعلين في حقل الحياة المدرسية بصفة عامة، ومدى انعكاس كل ذلك على التحصيل والتفوق الدراسيين...

وتأتي دراسة الأستاذ أحمد لعمش في سياق البحث في تفاصيل هذه الإشكالية العويصة التي تشكو منها المنظومة، بسبب الاختلالات والمستجدات التي أصبحت تعتمل مع بعضها البعض في معترك حياة الإنسان المعاصر بصفة عامة والحياة المدرسية بصفة خاصة. اشتغل الكاتب على طبيعة العلاقة السائدة بين المتمدرسين وأساتذتهم ومربيهم، وطبيعة التمثلات القبلية التي يحملها الصغير تجاه شصية المدرس، وبلغة المؤلف: التوافق الاجتماعي بالمدرسة وأثره على التحصيل والتفوق المدرسي. قدم للكتاب الأستاذ الدكتور عبد الله الخياري الذي يقول في طالعة الدراسة:» واعتبارا لكون المؤلف اهتم في هذه الكتاب بالتمثلات التي يكونها المتعلم تجاه المدرس ، فقد انتهى في القسم الميداني من البحث إلى تأكيد وجود علاقة دالة بين طبيعة تمثلات المتعلمين لشخصية المدرس وبين توافقهم الاجتماعي بالمدرسة؛ مبينا أن متغير السن يلعب دورا في تحديد طبيعة تمثل المدرس(كلما ارتفع سن المتعلم

كلما تمثل مدرسا بالمواصفات المهنية، وكلما انخفض سنه كلما غلبت على العلاقة بينهما الحمولة الوجدانية)... ويستخلص المؤلف عقب نهاية تحليله الشامل والعميق لكل العوامل والأبعاد أن تمثلات المتعلمين هي حصيلةُ تفاعل مجموعة من العوامل الذاتية والموضوعية، تجد مرجعيتها في الثقافة الأسرية وفي أنماط التنشئة الاجتماعية ونماذج المثاقفة...»[1].

إن الارتباط بالمحيط الصغير لعالم الطفل يجعل تشكيلة التمثلات رهينة التأثير والتأثر والبصمات التي تبصمها مرجعية البيت وجماعة الأقران، وبالتالي ينطبع الصغير بقيم أسرته ومعايير جماعة أقرانه التي ينتمي إليها، وينبني عنده التصور الأولي لشخصية المدرس. يقول أحمد لعمش:»إن الطفل يلج المدرسة وهو محمل بحجم كبير من القيم والمعايير الأولية راكمها بواسطة الخبرات التي اكتسحها سواء من الأسرة أو من الفضاء الخارجي الذي عاش فيه مرحلة طفولته الأولى والثانية، حيث تحدث الاتجاهات والقيم خلال تفاعله مع الآخرين الذين يمثلون له نوعا خاصا من العلاقات التي تربط بينه وبين أولئك الآخرين برباط قوي... إن ما يسمعه الطفل من أبيه وأقربائه عن المعلم سيكون له دوره الفعال في تحديد ما يتوقعه من المعلم قبل التحاقه بالمدرسة. من هنا سيكون أول لقاء بين المعلم والتلميذ متأثرا بعوامل ومحددات سوسيو عائلية أكثر نوعية... »[2]

ويخلص الباحث وهو يدرس إشكالية البحث في شقها النظري إلى أن «الأسرة ومناخ جماعة الفصل وأنماط العلاقات القائمة بين التلاميذ والمدرسين، وتمثلات المتمدرسين لهم، كلها ميكانزمات التوافق التي تؤثر فيه إما سلبا أو إيجابا. وشددت كل التنظيرات المعتمدة على دور المدرس الفعال في تحقيق التوافق الدراسي الإيجابي لدى التلاميذ وخاصة في مستوى المدرسة الابتدائية»[3].

وينتقل الباحث في الباب الثاني إلى الجانب التطبيقي الذي رصد، بدقة تفكيكية، شخصيةَ المدرس(في أبعادها الثلاثة: المعرفي والوجداني والمظهري) والممارسة البيداغوجية المتبناة والتواصل الصفي المتبع، وذلك من خلال أفراد عينة البحث المنحصرة في 300 تلميذة وتلميذ من المستوى الثاني والمستوى السادس من التعليم الابتدائي. وبعد اتباع الخطوات المنهجية في إنجاز البحث التربوي الميداني، توصل في النهاية إلى خلاصات قارنها بالفرضيات التي انطلق منها البحث والتي تنبني على «وجود علاقة ارتباط دالة بين تمثلات المتمدرسين لشخصية المدرس، وتوافقهم الاجتماعي بالمدرسة»، ومدى تأثير هذه التمثلات على التحصيل والمردودية.

2 ـ **الكتاب الثاني:** العلاقة البيداغوجية واكتساب المعارف:

العمل الثاني الذي أصدره الدكتور أحمد لعمش في نفس التاريخ اختار له عنوان»

العلاقة البيداغوجية واكتساب المعارف»وهو مكمل لسابقه، يرصد طبيعة العلاقة التواصلية البيداغوجية بين مدرسي سلك الإعدادي وتلامذتهم. صدر عن منشورات مجلة علوم التربية العدد 32، استوفى 151 صفحة من الحجم الكبير، وقدم له الأستاذ الدكتور أحمد أوزي.

تعتبر المرحلة التعليمية الإعدادية من أهم وأعقد المراحل العمرية في زمن التلقي والتعلم، نظرا للخصوصيات البيولوجية والحاجات النفسية للمتعلم الذي يتزامن عنده الزمن التعلمي بإرهاصات المراهقة والاهتمام المتزايد بالذات وبعض الميولات التي تفرضها طبيعة المرحلة العمرية والواقع المعيش الذي يشجعها بمختلف ألوان الإثارة والإلهاء، مما يجعل العملية التعلمية التعليمية أكثر صعوبة، وتحتاج لمهارات وكفايات مهنية متميزة للتغلب على تداعيات المرحلة وشططها، والحصولِ على مردودية تعليمية كافية لمواجهة - بكفاءة واقتدار - صعوبات التعليم الثانوي التأهيلي.

والكتاب الذي بين أيدينا يبحث بمنهج علمي مضبوط، نظريا وتطبيقيا، في طبيعة العلاقات السائدة بين طرفي العملية التعليمية: مدرس إعدادي / تلميذ الإعدادي، وما يخلفه المجتمع من تأثيرات على صورة المدرس، أو كما يقدم المدرس صورتَه للمجتمع من خلال سلوكيات تنافي أحيانا قيم المهنة وإشعاعها. ومن أجل تحسين جودة التعلمات وإعادة تقييم دور التربية المدرسية في سلك الإعدادي بذل الباحث في عمله هذا جهدا يروم من خلاله إعادة الاعتبار لمكانة التربية ومهام المدرس الجيد، وذلك كما يقول الدكتور أحمد أوزي في مقدمة الكتاب: «لبناء تمثلات وصور إيجابية لدى المتعلمين عن المدرسة والمدرسين، لما يربط بين التمثلات والاتجاهات الإيجابية التي يكونونها عن المدرسين وعن البنية التعليمية بشكل عام، وبين الدافعية والتحفيز على الإقبال على المعلومات والمعارف التي يسعى التعليم المدرسي إلى إكسابهم إياها. فالمؤلف يبرز في مختلف فضاءات كتابه بشكل واضح وأسلوب دقيق الدور الكبير الذي يلعبه المدرس في مساعدة المتعلم على اكتساب المعرفة وبناء أسسها ومقوماتها، سعيا لتوطينها وإنتاجها في المستقبل... »[4]

مهد صاحب الكتاب بمدخل نظري مُركز، رصد فيه موضوع اكتساب المعارف ودور شخصية مدرس هذا السلك في تحقيق الأهداف التعلمية وحدود ومدى استجابات التلاميذ للتحصيل، من خلال دراسات وأبحاث علم النفس المعرفي والسيكولوجي التي أجمعت كما يقول المؤلف «على المدرس لا يكفيه الإلمام بالمادة المعرفية التي سيقدمها، وإنما هو بحاجة إلى معرفة دقيقة بميكانزمات تعلم تلك المادة من قبل المتمدرسين. ذلك أن المتعلم يأتي إلى الفصل ومعه حمولة من التصورات والتمثلات عن

المادة التي سيتعلمها...إن المدرس مطالب، بالإضافة إلى أن يعرف كيف ينمي قدرات المتعلم أثناء عملية التعلم بفهم العوائق التي يمكن أن تضعها تلك الأنماط المقولبة Les stéréotypes من المعارف المسبقة أمام أي تعلم لاحق، والعمل على تجاوزها»[5]

إنه الرهان الصعب الذي تعانيه المنظومة حينما تختل موازين التواصل البيداغوجي والتدبير الصفي الناجح، من خلال فهم شخصية المتلقي وتقديرها، وحسن تدبير الفروقات الفردية التي تسود جماعة القسم.

عالج الأستاذ الباحث موضوع الكتاب من خلال الجانب النظري الذي خصه للمحاور التالية:

مفهوم التمثل من السياق الاجتماعي إلى السياق التربوي.

التمثلات في حقل العلوم المعرفية: وحدة الخصائص وتعدد الوظائف.

اكتساب المعارف بين الدوافع الذاتية والحوافز الموضوعية .

فيما اختص الجانب التطبيقي ببسط تفاصيل البحث الميداني والمنهجية المتبعة في استخلاص نتائجه وتفسيراتها، واختار الباحث العينة من بين متمدرسي السنتين الأولى والثالثة إعدادي. وقد أحس الباحث بجسامة الموضوع وتعقيداته وهو يمارس المسح الاستقصائي للعينة المنتقاة، ويصرح في مشارف نهاية بحثه بأن « الاحتكاك بستمائة (600) متعلمة ومتعلم عبر التطبيق الفردي للاختبارات والمقابلات والاستمارات، يكون قد منح هذا العمل رغم بساطته، ومحدودية آفاقه العلمية، صفة البحث السيكولوكي، وإن كان مستوى الطموح إلى الكشف عن خبايا آليات التحكم في إحدى العمليات العقلية البالغة التعقيد ، ونعني بها التمثلات الذهنية، قد جاء أقل مما كنا نأمل تحقيقه، وذلك لاعتبارات...»[6]

في الختم :

إن العملين اللذين أصدرهما الأستاذ الباحث أحمد لعمش لقرائه، يمثلان إسهاما مقدرا أغنى المكتبة المغربية في حقل الدراسات التربوية المعاصرة، خاصة أن صاحبهما وُفِّق في تحريرهما بلغة عربية سلسة سليمة استطاعت أن تتجاوز معيبات الترجمة، وحتى عيوب بعض الباحثين غير المتمكنين من سلامة التعبير وصحة الرسم الإملائي، مما يجعل دعوتنا لقراءة الكتابين من قِبَل الأساتذة الممارسين - وحتى المبتدئين - تجد مبررها وحافزيتها.

الهامش:

1 - التوافق الاجتماعي لتلاميذ التعليم الابتدائي:6 و7 / ط1 / 2013 / مطبعة النجاح الجديدة / البيضاء.

2 - نفسه: 66 و115.

3 - نفسه: 134.

4 - العلاقة البيداغوجية واكتساب المعارف: 8/ ط1 / 2013/ مطبعة النجاح الجديدة / البيضاء.

5 - نفسه: 12

6 - نفسه: 143